والمعنى: وجدا جداراً قد قاربَ مِنْ أنْ يقعَ أو يسقط.

وقد خاطبَ اللهُ بالقرآن مَنْ أنزلَ الوحيَ بلسانهم. وقد عقلَ العربُ ما عنى الله بـه، وإنْ ضلَّ فيه بعد ذلك ذوو الجهالـة والغباء، واسـتعجمَ عن فهمه ذوو البلادة والعمى»[1].

والملاحَظُ أنَّ الإمامَ الطبريَّ في تفسير إرادةِ الجدار لم يقلْ بالمجاز، كما أنه لم ينفِ المجاز، فهو لم يبحثْ هذا الأمرَ أساساً، ولم يَخُضْ فيه نفياً أو إثباتاً، وإنما فهم الآيـةَ على أساسِ طريقةِ القرآنِ في التعبير، واعتبرَ هذا أسـلوباً قرآنياً مطرداً، استشهدَ عليه ببعضِ الآيات الأخرى.

فإرادةُ الجدار ميلُه، والجدارُ كان قد قاربَ السقوط، والعربُ فهموا من الآيةِ هذا الفهم، لأنَّ هذا الأسلوب موجودٌ في لغتهم.

ومَنْ شاء أنْ يسمي هذا حقيقةً وليس مجازاً فله ذلك، ومَنْ شاء أن يسميه مجازاً فله ذلك، المهمُّ هو أنْ يقفَ على طريقـةِ القرآن في التعبير، وأنْ يعرفَ الحكمةَ من نسبةِ الإرادة إلى الجدار، ومعنى ذلك!!

وياليتَ مَنْ أتعبوا الناسَ في الحقيقةِ والمجاز، نفياً وإثباتاً يعودون إلى منهج الطبري في فهمِ الآياتِ التي خاضوا فيها!!

٨ ـ الاختلافُ بسبب احتمال الإضمار أو الاستقلال:

من أسبابِ اختلافِ المفسرين اختلافُهم في معنى الآية، هل تؤخَذُ على ظاهرِها وصياغتِها، أم لابدَّ من تقديرِ كلمةٍ مقدَّرة مضمرة؟

الاستقلالُ يعني فهمَها كما هي بدون تقديرِ لكلماتٍ مقدَّرة. والإضمارُ يعني أنْ تُقَدَّرَ كلمةٌ مضمرةٌ مقدَّرةٌ، لحُسنِ فهم الآية.

من الأمثلةِ على ذلك قوله تعالى عن المنافقين: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

(١) تهذيب تفسير الطبري: ٥/ ١٩٠ ـ ١٩١.

لأنها تقوم على إملاءِ اللهِ لهم، وفضحِهم وكشفِهم أمامَ المؤمنين، لئلاّ يُخدعوا بهم.

٢ ـ جاءَ التعبيرُ في الآيةِ وفقَ ظنِّ المنافقين، حيث ظنوا أنَّ اللهَ يمكنُ أنْ يُخْدَع، وأنْ يُدلَّسَ عليه، وأنْ تخفى عليه بعضُ الأمور:

وتعبيرُ الزمخشري في توجيه هذا الوجه عليه تحفُّظ، لأنّه أدخلَ فيه بعضَ اعتزالياتِه!

٣ ـ في الجملةِ: «يخادعون الله» إضمارٌ. والتقدير: يخادعون رسولَ الله. فَذُكِرَ اللهُ تعالى والمرادُ رسولُ اللهِ ﷺ. لأنَّه رسولُه، والناطقُ بأوامره ونواهيه، والمبلّغُ لشرعه.

فقد يقـول قائل: قال الملِـكُ كذا، وأمَرَ الملِكُ بكذا، والقائلُ أو الآمـرُ وزيرُه، فالتقدير: قالَ وزيرُ الملك كذا، وأمرَ وزيرُ الملكِ بكذا!

٤ ـ المرادُ من قوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يخادعون الذين آمنوا فقط. وذِكْرُ كلمة «الله» في الآية: من بابِ تكريم المؤمنين وتشريفهم، والإشارةِ إلى قوةِ صلتهم بالله. فالمعنى: يخادعون الذين آمنوا بالله[1].

والتوجيهُ الرابعُ للزمخشري لنا تحفُّظٌ عليه. والتوجيهُ الثاني ممكنٌ مع أنه بعيد.

فالراجحُ عندنا هو التوجيهُ الأول، وهو حملُ الآيةِ على الاستقلالِ وعلى الظاهر، وجاء التعبيرُ فيها من بابِ المشاكلة، فمخادعتُهم لله والمؤمنين مذمومةٌ باطلة، ومخادعةُ اللهِ لهم محمودةٌ، لأنها تقومُ على استدراجهم وإملائهم، وقَبولِ ما أظهروه في الظاهر، ومعاملتُهم على أساسِ ما في قلوبهم من الكفرِ يومَ القيامة.

وعلى هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢].

---

(١) الكشاف للزمخشري: ١/ ٥٧ ـ ٥٨.

والشاهدُ في كلامِ الزمخشري هو التوجيهُ الثالث، حيث جعلَ بعضُ المفسرين التعبيرَ في الآيةِ من بابِ الإضمار. أي يخادعون رسولَ الله والذين آمنوا.

وعندما فسَّرَ الإمامُ الطبريُّ المخادعةَ في الآية: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ اعتبرَها من باب المشاكلة.

ويهمُّنا من تفسيرِه لها هذه الفقرة: «أثبتت الآيةُ مخادعةً بين طرفيْن. فمن هو الطرفُ الثاني الذي خادَعَ المنافقَ؟ ومَن هو الذي خادَعَه المنافقُ؟

قال بعضُ العلماء: إنَّ «خادَعَ» هنا بمعنى «خَدَعَ». وهو كقولك لآخر: قاتَلَكَ الله، بمعنى: قتَلَكَ الله. فلا مفاعلةَ هنا في الخداع!

والراجحُ أنَّ المفاعلةَ هنا موجودةٌ، وأنها مخادعة كما صرّحت الآية. فالمنافقُ يخادعُ اللهَ سبحانه، لأنه يكذب في دعواه الإيمان باللسان، وإن اللهَ سبحانه يخادعُ المنافق، حيثُ خَذَلَهُ عن حُسْنِ النظرِ فيما فيه نجاةُ نفسه في الدنيا والآخرة.

وقد أشارَ القرآنُ إلى سخريةِ اللهِ بالمنافقين يوم القيامة. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣][1].

٩ ـ الاختلاف بسبب احتمال زيادة الكلمة:

اختلفَ المفسّرون والنحويون في موضوعِ الزيادةِ في القرآن. فذهبَ بعضُهم إلى أنَّ بعضَ الحروفِ والأسماءِ زائدةٌ في التعبيرِ القرآني، وهي عندهم زائدةٌ من حيثُ الإعراب، وليس من حيثُ المعنى، وممن قال بذلك أبو عبيدة معمرُ بن المثنّى، وابنُ قتيبة، وتابَعَهما على ذلك كثيرٌ من المفسّرين والنحويين والبلاغيين.

---

(١) تهذيب تفسير الطبري: ١/١١٨.

ورفضَ بعضُهم القولَ بالزيادة، واعتبروا ورودَ الكلمةِ على ما وردَتْ عليه في الجملةِ القرآنية لحكمةٍ معنويةٍ وأسلوبية، وهذا وفقَ أساليبِ البيانِ والتعبيرِ في القرآن، وهو مظهرٌ من مظاهرِ إعجازِ القرآن.

وممن رفضَ القولَ بالزيادة الإمام الطبريُّ والزمخشريُّ وابنُ كثير وغيرهم.

وناقشت الدكتورةُ عائشةُ عبد الرحمن ـ بنت الشاطئ ـ رحمها الله موضوعَ الزيادةِ مناقشةً بيانيةً في كتابها «الإعجاز البياني». وخصصَ لها الدكتورُ فضل عباس كتاباً خاصاً، هو «لطائف المنان».

ونحنُ مع الفريقِ الثاني من المفسرين والبلاغيين الذين ينفون وقوعَ الزيادةِ في القرآن، ونعتبرُ أنّ كلَّ كلمةٍ في القرآنِ جيءَ بها لحكمة، ولها وظيفةٌ محدّدة، ومعنى مقصود، ووفقَ طريقةِ القرآنِ المعجزة في التعبير. ونحنُ قد نقفُ على ذلك ونعرفه، وقد نجهلُه ويخفى علينا وجهُه، وإذا ما خفيَ علينا ذلك فلنتهمْ عقولَنا بالعجزِ عن إدراكِه بدلَ أن نتّهمَ القرآنَ المعجزَ أنّ فيه زيادة!!

ومن الأمثلةِ على الاختلافِ في احتمالِ الزيادة وعدمِها قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١ ـ ٢].

ذكر الإمامُ ابنُ جرير الطبري اختلافَ المفسرين في تفسيرِ الآية، قال:

«اختلفَ أهلُ التأويلِ في معنى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

١ ـ فقالَ بعضهم: «لا» صلةٌ. أي زائدة. والمعنى: أقسمُ بيوم القيامة.

قال سعيد بن جبير: «لاأقسم بيوم القيامة». أي: أقسمُ بيوم القيامة.

٢ ـ وقال آخرون: «لا»: جيءَ بها لتوكيدِ القَسَم. كقولك: لا. والله.

٣ ـ وقال آخرون: «لا»: ردٌّ لكلامِ المشركين المنكرين للبعث في السورة السابقة. وبعدَها كلامٌ مستأنفٌ جديد، قرّرَ اللهُ فيه أنه يقسمُ بيومِ القيامة.

والمعنى: لا. ليس الأمرُ كما زعمه المشركون، من أنّه لا بعث. أُقسِمُ بيومِ القيامة على أنَّ البعثَ واقعٌ.

وقال أصحابُ القول الثالث: كلُّ يمينٍ قبلَها ردٌّ لكلامٍ، فلابدَّ من ذكْرِ «لا» قبل اليمين ليفرّق بين يمين الإنكار واليمين المستأنفة.

إنك عندما تبتدىءُ الكلامَ تقول: والله، إن الرسولَ حقّ. ولكنّك إذا كذَّبتَ قوماً أنكروا الرسالة قلت: لا. والله إن الرسول حق.

وعلى هذا القولِ الثالثِ يكون الله قد أقسمَ بيوم القيامة، وأقسمَ بالنفسِ اللوّامة.

ولهذا قالَ ابنُ عباس: «هذا قَسَمٌ من الله بيوم القيامة، وبالنفس اللوّامة، واللهُ يقسم بما شاءَ من خلقه».

وقال قتادة: «أقسمَ اللهُ بيوم القيامة، وأقسمَ بالنفس اللوّامة».

وبعد ما أوردَ الإمامُ الطبريُّ اختلافَ المفسّرين بالقسَمِ ومعنى «لا» رجَّحَ القولَ الثالث: «والراجحُ القولِ: «لا»: ردٌّ لكلامٍ سابق، وإبطالٌ لكلام المشركين، وبعدها يمينٌ مستأْنَف، أقسمَ اللهُ فيه بيوم القيامة والنفس اللوّامة.

والتقدير: لا. ليس الأمرُ كما زعمَ المشركون أنّه لا بعث، وأقسمَ اللهُ على ذلك بيوم القيامة، كما أقسم عليه بالنفس اللوامة»[1].

ورأيُ الإمامِ الطبري في منعِ القولِ بالزيادةِ في القرآن رأيٌ لطيفٌ وجيه، نوافقُه عليه تمامَ الموافقة.

استمعْ إليه وهو يقول: «إنَّ كلَّ حرفٍ في القرآن له معنى محدّد، ولا يجوزُ أنْ نبطلَ دلالتَه، وأنْ نلغيَ معناه، وأنْ نعتبرَه زائداً.

إننا عندما نعتبر الحرفَ زائداً، مع أنَّ له معنى محدداً، نفتحُ البابَ أمامَ غيرِنا أنْ يدَّعيَ أنَّ جملةً كاملةً زائدة، وأنْ يلغيَ معناها، ويلغيَ آخرُ معنى جملةٍ أُخرى، وهكذا، وبهذا يبطلُ كلُّ معنى لكلِّ كلمةٍ أو جملةٍ في القرآن»[2].

---

(١) تهذيب تفسير الطبري: ٧/ ٤٦٤ ـ ٤٦٥.
(٢) المرجع السابق: ١/ ١٨١.

١٠ ـ الاختلاف بسبب احتمال التقديم والتأخير في المعنى:

احتمالُ التقديمِ والتأخيرِ سببٌ من أسبابِ اختلافِ المفسّرين. وليس المرادُ به التقديمَ والتأخيرَ في صياغةِ الجملة القرآنية، وترتيبِ كلماتِها، فهذا مما لا يناقشُ فيه مسلم، لأنه قد أجمعَ المسلمون على أنَّ كلَّ ما في المصحفِ من سورٍ وآياتٍ هو كلامُ الله، وأنَّ الآياتِ مرتّبةٌ في السورِ على ما هي عليه بأمر الله، وأنه لا يجوزُ التقديمُ أو التأخيرُ أو التغييرُ أو التبديلُ في ذلك، فمن فعلَ ذلك فقد كفر.

التقديمُ والتأخيرُ الذي اختلفَ فيه المفسرون هو في معنى الآية.

من الأمثلةِ على ذلك قولُه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ [آل عمران: ٥٥].

ظاهرُ الآيةِ فيه إشكالٌ، حيث عَطَفتْ رفعَ عيسى عليه السلام على تَوَفِّيه، وهذا معناه أنَّ اللهَ توفّى عيسى أولاً، ثم رفَعَهُ ثانياً. وإذا كان التوفّي هنا بمعنى الموت، فإنه يتناقضُ مع إيمانِ المسلمين بأنَّ عيسى عليه السلام لم يمُت، وأنَّ اللهَ رفعَه إليه في السماء، وأنّه سينزلُ قبيلَ قيامِ الساعة. فكيفَ أماته الله ورفعه إليه؟

اختلف المفسّرون في توجيه هذا.

١ ـ فمنهم من قال: في الآيةِ تقديمٌ وتأخيرٌ في المعنى. فالرفعُ مقدَّمٌ في الواقع على التوفّي، فقد رفعَهُ اللهُ إليه، وهو حيٌّ في السماءِ حياةً خاصة، وسوف ينزلُه اللهُ في آخرِ الزمان، ثم يتوفّاه بعد ذلك.

وتقديرُ معنى الآية عندهم: إني رافعُكَ إليَّ، ومتوفّيك.

٢ ـ ومنهم مَن قال: ليس في معنى الآيةِ تقديمٌ وتأخير، وتؤخَذُ على ظاهرِها. فاللهُ توفّى عيسى عليه السلام، ثم رفعه بعد ذلك.

والتوفّي عند هؤلاء ليس بمعنى الموت، لأنَّ عيسى حيٌّ في السماء، وإنما

التوفّي بمعنى القبضِ والنوم. فاللهُ ألقى النومَ على عيسى، ثم رَفَعَهُ وهو نائم!

ومعنى الآية: إني مُنيمُك، ورافعُكَ إليَّ وأنتَ نائمٌ.

والراجحُ هو القول الثاني، فاللهُ ألقى على عيسى عليه السلام النومَ، والتوفّي في الآية بمعنى النوم، ورفعَهُ اللهُ إليه وهو نائمٌ. فليس في الآية تقديم، وإنما تُفهَمُ على ظاهرِها.

قالَ الإمامُ ابنُ كثير في تفسير الآية:

«اختلف المفسِّرون في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾:

١ ـ فقالَ ابنُ عباس وقتادة: معنى «متوفيك»: مميتُك. وهذا من المقدَّمِ والمؤخَّر. والتقديرُ: إنّي رافعُكَ إليّ ومتوفّيك.

٢ ـ وقالَ وهب بن مُنَبِّه: توفّى اللهُ عيسى عليه السلام، وأماتَه ثلاثةَ أيام، ثم بعثَه من الموت، ثم رفعه بعد ذلك!

وكلامُ وهب بن منبّه مردودٌ باطل، وهو يتّفقُ مع ما يقولُه النصارى عنه، فهم يزعمون أنّ اللهَ أماته ثلاثةَ أيامٍ، ثم أحياه، ثم رفعه إليه!

٣ ـ وقال مطرُ الوراق: التوفّي هنا بمعنى القبضِ من الدنيا. والمعنى: إني متوفّيك من الدنيا، قابضُكَ منها ومغيِّبُك عنها. وهي ليستْ وفاةَ موت.

ورجَّحَ ابنُ جرير الطبري هذا القول. فالتوفّي عنده بمعنى القبض وليس الموت، وليس في الآية تقديم.

٤ ـ وقال الأكثرون من المفسّرين: المرادُ بالوفاةِ هنا النوم.

قال الحسن البصري: «إني متوفيك»: وفاةَ المنام. فاللهُ رفعه وهو نائم.

وقد رجَّحَ ابن كثير القولَ الرابع، واعتبرَ الوفاةَ بمعنى النوم، فاللهُ رفعَ عيسى عليه السلام وهو نائمٌ. واستدلَّ على هذا بآياتِ القرآن.

قال: وهذا كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴾ [الزمر: ٤٢][1].

والراجحُ ما رجَّحه الإمام ابن كثير، والله أعلم.

١١ ـ الاختلافُ بسبب احتمال النسخ أو الإحكام:

اختلفَ المفسّرون في القولِ بالنسخِ، فقليلٌ منهم أنكروا وقوعَ النسخِ في القرآن، ومنهم مَنْ بالغَ في القولِ بالنسخِ، واعتبر ما كان من بابِ التخصيص من بـاب النسـخ، ومنهم مَنْ كان مقتصداً وَسَطاً، فلم يَنْفِ النسخَ ولم يُبالِغْ فيـه، والآياتُ المنسوخة عنده قليلة.

ومن الأمثلةِ على اختلافِهم في النسخ، اختلافُهم في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

يأمرُ اللهُ المؤمنينَ في هذه الآيةِ أنْ يتّقوه حقَّ تقاته.

وقد اختلفَ المفسِّـرون في معنى «حق تقاته»، وبنـاءً على ذلك اختلفَ قولُهم بالنسخ!

١ ـ قال بعضُ المفسرين: معنى «حقَّ تقاته»: اتقوا الله اتقاءً حقاً ثابتاً واجباً، ولا تُقصِّروا في هذه التقوى.

والآيةُ عند هؤلاء ـ وعلى هذا المعنى والتفسير ـ محكمةٌ ليست منسوخة، لأنَّ كلَّ مؤمنٍ يمكنُه أنْ يحققَ التقوى بهذا المعنى.

٢ ـ وقال آخرون من المفسرين: معنى «حقَّ تقاته»: اتقوا الله تقوى تليقُ بجلالتِه وعظمتِه وقَدْرِه، وما يجبُ له سبحانه من توقيرٍ وتعظيمٍ وإجلال!

والآيةُ عند هؤلاء منسوخة، لأنها تكليفٌ بما لا يُطاق، فتقوى اللهِ بهذا المعنى مستحيلةٌ وغيرُ ممكنة.

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٣٤٦.

والناسخُ لهذه الآية عند الفريق الثاني، هو قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

١ ـ ممن ذهب إلى أنَّ الآيةَ محكمة:

عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه. قال: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾: أي: أنْ يُطاعَ اللهُ فلا يُعصى، وأنْ يُذكَرَ فلا يُنسى، وأنْ يُشكَرَ فلا يُكفَر.

وأنسُ بن مالك رضي الله عنه، قال: لا يتقي العبدُ حقَّ التقوى حتى يخزنَ لسانه.

وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ لم ينسخ. و«حق تقاته» أنْ يجاهدَ المسلمون في سبيل الله حقَّ جهاده، ولا تـأخذَهم في اللهِ لومةُ لائم، ويقوموا بالقسـط، ولو على أنفسـهم وآبائهم وأبنائهم.

وممن ذهبَ إلى أنَّ الآيةَ محكمةٌ أيضاً: الربيع بن خيثم، وعمرو بن ميمون، وإبراهيم النخعي، وطاووس، والحسن البصري، وقتادة، والسدي، وغيرهم.

٢ ـ وممن ذهبَ إلى أنَّ قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ ناسخٌ لقوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾:

سعيد بن جبير. قال: لما نزلَ قولُه تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ اشـتدَّ العملُ على المسـلمين، فقامـوا حتى ورمَتْ عـراقيبُهم، وتقرَّحتْ جباهُهم، فأنزلَ اللهُ قولَه تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ تخفيفاً على المسلمين، فنسخت الآية الأولى.

وزيدُ بن أسلم. قال: إنَّ آيةَ سورة التغابن ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ ناسخةٌ لآية سورة آل عمران: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.

وممن قالَ بالنسخِ: أبو العالية ـ رفيع بن مهران ـ والربيع بن أنس، ومقاتل ابن حيان[1].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير: ١/ ٣٦٦ و٤/ ٣٧٧.

والراجحُ أنَّ الآيةَ محكمة، وأنه لا داعي للقولِ بالنسخ، ولا تعارضَ بين آيةِ سورة آل عمران وآية سورة التغابن.

إنَّ معنى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾: اتقوا الله تقوى صادقة حقة، ولا تقصروا فيها.

وتكونُ آيةُ سورة التغابن ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ بياناً للتقوى المطلوبة في آية سورة آل عمران، والبيانُ ليس نسخاً!.

١٢ ـ الاختلاف بسبب الروايات المنقولة:

من أسبابِ اختلافِ المفسرين اختلافُهم في الرواياتِ المنقولة عن رسول الله ﷺ وأصحابه.

قال الإمامُ ابنُ تيمية حولَ هذا السبب:

المنقولُ قد يكونُ عن المعصومِ رسول الله ﷺ، وقد يكونُ عن غيره.

والمنقولُ عن غيرِ رسول الله ﷺ معظمُه مما لا يمكنُ معرفةُ الصحيح منه، وعامةُ هذا النوعِ مما لا فائدةَ فيه، والكلامُ فيه من فضول الكلام.

ومثال هذا: اختلافُ المفسرين في لونِ كلبِ أصحابِ الكهف، وفي تحديدِ البعض من البقرة الذي ضُربَ به القتيلُ زمنَ موسى عليه السلام، وفي حجمِ ومساحةِ سفينةِ نوحٍ عليه السلام، وفي اسمِ الغلامِ الذي قتله الخضرُ عليه السلام. ونحو ذلك.

فهذا لا يجوزُ تصديقُه ولا تكذيبُه إلا بحجّة.

. . ومتى اختلفَ التابعون لم يكن بعضُ أقوالِهم حجةً على بعض. وما نُقِلَ في ذلك عن الصحابة نقلاً صحيحاً فالنفسُ إليه أسكنُ مما نُقِلَ عن بعض التابعين!

والمنقولُ عن رسول الله ﷺ فهذا يمكنُ معرفةُ الصحيح منه، وما نحتاجُ

إليه منه موجود، ويمكن تخريجُه، في التفسير والحديث والمغازي والأحكام وغير ذلك[1].

ومن الأمثلةِ على هذا الاختلاف في الفريقيْن الخصميْن المقصوديْن في قوله تعالى: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ [الحج: ١٩].

١ ـ فقالَ بعضُ المفسرين: أحدُ الفريقين المؤمنون، والآخرون كفارُ قريش، واختصامُ الفريقيْن اقتتالُهم في معركة بدر.

قال أبو ذر الغفاري رضي الله عنه: أُقسمُ أنَّ هذه الآيةَ نزلتْ في حمزةَ وصاحبيه ـ علي وعبيدة بن الحارث ـ وعتبة وصاحبيه ـ شيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة ـ يوم تبارزوا يوم بدر، فقتل المؤمنون الكفارَ في المبارزة.

وقالَ عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: أنا أولُ مَنْ يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة.

وقالَ قيسُ بن عباد الراوي عن علي: وفيهم نزل قوله: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾.

٢ ـ وقال آخرون: أحدُ الفريقيْن المؤمنون، والآخرون أهل الكتاب.

قالَ ابنُ عباس وقتادة: اختصم المسلمون وأهل الكتاب، حيث قال أهل الكتاب للمسلمين: نبيُّنا قبلَ نبيّكم، وكتابنا قبل كتابكم، فنحنُ أولى بالله منكم!

فقال لهم المسلمون: نحن أولى بالله منكم، آمنا بمحمد ﷺ، وآمنا بنبيّكم، وآمنا بكلِّ ما أنزل اللهُ من كتاب، ونبيُّنا خاتمُ الأنبياء، فأنتم تعرفون كتابنا ونبيّنا، ثم تركتموه وكفرتم به حسداً.

فأنزلَ اللهُ الآية: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾.

٣ ـ وقال آخرون: هم المؤمنون والكفار من أية ملة كانوا.

---

(١) مقدمة في أصول التفسير، ص٥٥ ـ ٥٨. باختصار.

قال مجاهد وعطاء: هم المؤمنون والكافرون اختصموا في ربهم.

٤ ـ وقال آخرون: المرادُ بالفريقيْن الجنة والنار حين اختصمتا.

قال عكرمة: هما الجنةُ والنار اختصمتا. فقالت النار: خلقني الله لعقوبته، وقالت الجنة: خلقني الله لرحمته.

وقد رجحَ ابنُ جرير الطبري القولَ الثالث الذي قالَه مجاهد وعطاء. فالقول بأن الآيةَ نازلةٌ في اختصام المؤمنين والكافرين أولى وأرجح، لأنه يشملُ الأقوالَ كلها.

هذا هو الراجحُ لأن الآياتِ السابقة تحدّثَتْ عن صنفين في الناس: مؤمنين ساجدين لله، وعُصاة كافرين، وهذه الآيةُ وما بعدَها تتحدّثُ عن مصيرِ كلٍّ من الصنفين يوم القيامة.

وعلى هذا القول، تنطبقُ الآيةُ على كفارِ قريش، وعلى أهل الكتاب. ولا مانعَ أنْ تكونَ الآيةُ نازلةً في مبارزةِ كفارٍ ومسلمين يوم بدر، كما أقسمَ على ذلك أبو ذر رضي الله عنه، لأنَّ الآيةَ قدْ تنزلُ لسببٍ من الأسباب، ثم تكونُ عامةً تشملُ كلَّ ما كان نظيراً له[1].

* * *

(١) تهذيب تفسير الطبري: ٥/ ٤١٧ ـ ٤١٨.